العرب
الأربعاء 2021/09/08
السنة 44 العدد 12173

منطق اللامنطق الروسي في سوريا

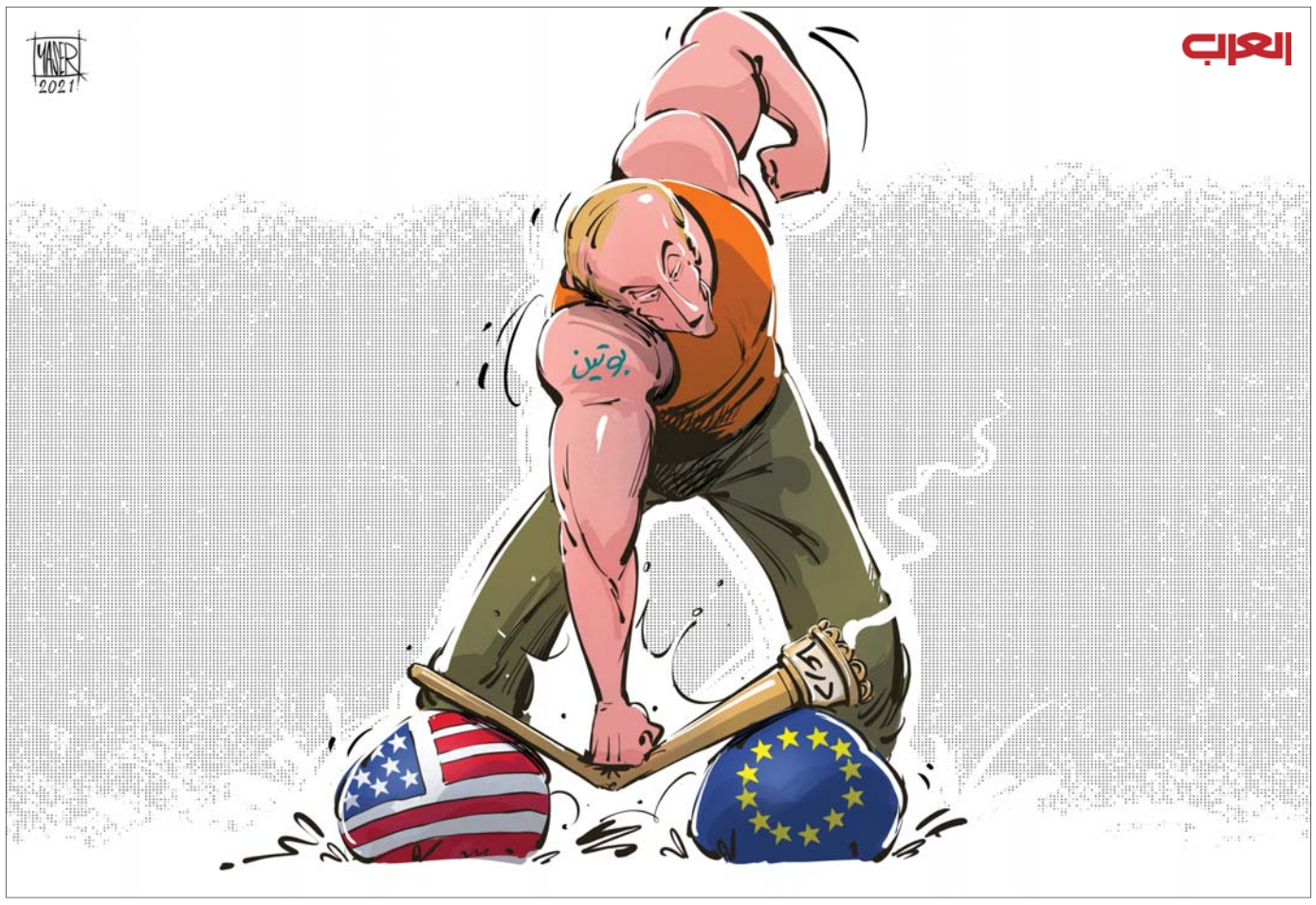

خيرالله خيرالله
إعلامي لبناني

لا يمكن الاستخفاف بما هو على المحكّ في جنوب سوريا حيث يتبيّن أن روسيا تدعم النظام الأقلّوي السوري مباشرة من جهة وتشجع إيران على تكثيف وجودها في تلك المنطقة من جهة أخرى. لماذا ترفض روسيا أخذ العلم بأنّ النظام السوري مرفوض من شعبه وأنّ لا مستقبل له؟ لا تفسير لمثل هذا الرفض الروسي على الرغم من مضيّ أكثر من عشر سنوات على اندلاع الثورة الشعبيّة على النظام القائم الذي يرفض أن يكون السوري أكثر من عبد لديه!

من الواضح أن روسيا ترفض أن تتعلّم من تجارب الاتحاد السوفياتي. لو كان للنظام السوري القائم منذ العام 1970 أيّ مستقبل من أيّ نوع، لكانت كلّ من بولندا وألمانيا الشرقيّة ورومانيا وتشيكوسلوفاكيا (صارت دولتين هما تشيكيا وسلوفاكيا) وهنغاريا ورومانيا وبلغاريا لا تزال بمثابة جرم يدور في الفلك السوفياتي، السعيد الذكر.

أين مصلحة روسيا من كلّ ذلك؟ ثمّة من يعتقد أنّ الأميركيين في عهد جو بايدن غير مهتمّين بالمنطقة وسيقبلون بأن تتسلّمها روسيا التي لم تتردّد يوما في أن تضع نفسها في خدمة إيران

ما يطرحه الروس في ما يتعلّق بمستقبل الجنوب السوري يصبّ في خدمة مشروع يستهدف إحداث تغيير ديموغرافي دائم في تلك المنطقة السنّية – الدرزية الحيويّة التي لديها امتداد طبيعي مع الأردن وحتّى مع جنوب لبنان. إلى ذلك، فإنّ وجود الميليشيات الإيرانيّة على حدود الأردن يسهّل تهريب كل أنواع البضائع، بما في ذلك المخدرات إلى دول الخليج العربي!

يبدو الموقف الروسي من تلك المنطقة الحساسة غريبا إلى أبعد الحدود، خصوصا أنّه سبق لموسكو أن تعهدت بمنع إيران من إيجاد مواقع عسكريّة دائمة في الجنوب السوري في مقابل الحدّ من الهجمات الإسرائيلية على أهداف محدّدة في محيط دمشق.

ليس الموضوع موضوع حماية إسرائيل بمقدار ما أنّه مرتبط بخلق واقع جديد على الأرض لا يهدّد مستقبل سوريا، هذا إذا كان لها مستقبل فحسب، بل يهدّد الأردن ولبنان أيضا.

يطرح الموقف الروسي بالفعل أسئلة لا أجوبة عنها، أقلّه في المدى المنظور. من بين هذه الأسئلة ما مصلحة موسكو في حماية الوجود الإيراني في سوريا؟ تصعب الإجابة عن مثل هذا السؤال إلّا إذا كان مطروحا لعب موسكو لدور الوسيط بين إيران وإسرائيل من أجل تسهيل صفقة بين "الجمهوريّة الإسلاميّة" و"الشيطان الأصغر" يضمن بموجبه الطرف الإيراني خط وقف إطلاق النار بين سوريا وإسرائيل ولبنان وإسرائيل في مقابل اعتراف بأمر واقع مّا.

يتمثّل الأمر الواقع هذا في أن يكون كلّ من لبنان وسوريا تحت السيطرة الإيرانية مع حفظ للمصالح الروسيّة في البلدين.

يمكن القول إن مثل هذه النظريّة المتعلّقة بحفظ إيران، عبر ميليشياتها، أمن إسرائيل على حدودها الشماليّة من نسج الخيال. لكن ليس ما يمنع التساؤل عن المنطق الروسي، وهو منطق أقرب من اللامنطق أكثر من أيّ شيء آخر. مثل هذا التساؤل أكثر من مشروع في ضوء الإصرار على تهجير قسم من أهالي درعا وإبقاء دروز السويداء والقرى المحيطة بها موضع ابتزاز دائم تحت تهديد داعش أو الميليشيات الإيرانيّة، لا فارق.

قد يكون التفسير الوحيد الذي تمكن الاستعانة به، من أجل فهم المنطق... أو اللامنطق الروسي الذي لا يأخذ في الاعتبار مصلحة الأردن، تاريخ علاقات موسكو بالمنطقة منذ خمسينات القرن الماضي. لم يتغيّر شيء بعد سقوط الاتحاد السوفياتي. لا تزال روسيا تتصرّف بالطريقة ذاتها من منطلق وجود منافسة بينها وبين أميركا. من هذا المنطلق، ليس مهمّا ما يحل بهذه الدولة العربيّة أو تلك. المهمّ أن تستخدم روسيا المنطقة العربيّة بغية تأكيد أنّ لديها دورا تلعبه في مواجهة الأميركيين.

يبدو واضحا أنّ الكرملين يرى في إدارة جو بايدن إدارة ضعيفة وحائرة. يؤكّد ضعفها طريقة الانسحاب من أفغانستان. ويؤكّد حيرتها أيضا غياب أي مشروع أميركي بالنسبة إلى سوريا أو العراق. حسنا، ستستغل موسكو هذا الضعف وهذه الحيرة ولكن من أجل تحقيق أيّ هدف... غير هدف خدمة إيران؟

من يعود بالذاكرة بضعة عقود إلى خلف، يكتشف أنّ روسيا، وقبلها الاتحاد السوفياتي، لم يقدما يوما على عمل بناء في المنطقة العربيّة كلّها، اللهمّ إلّا إذا وضعنا السدّ العالي جانبا. تظلّ سوريا المثال الأبرز على الفشل الروسي والسوفياتي. شجعت موسكو في كلّ وقت على استمرار حال اللاحرب واللاسلم التي اتبعها حافظ الأسد منذ خسارته الجولان في العام 1967.

من الألغاز التي لا تزال ألغازا أنّ موسكو لم تحذر جمال عبدالناصر من دخول مغامرة حرب 1967 التي جرّه إليها النظام البعثي المزايد في سوريا.

الأكيد أن موسكو كانت على علم تام بنتائج تلك الحرب قبل اندلاعها، لكنها لم تقم بأيّ عمل مفيد من أجل الحؤول دونها. كان رهانها الدائم على أنّ العربي الضعيف سيكون أكثر حاجة إليها من العربي القويّ. في النهاية، لو اتكل أنور السادات على نصائح الاتحاد السوفياتي، لكانت سيناء بنفطها وغازها ومناطقها السياحيّة، مثلها مثل الجولان والقدس الشرقيّة والضفّة الغربيّة، تحت الاحتلال الإسرائيلي إلى اليوم.

تعرف روسيا قبل غيرها أنّ الشعب السوري يرفض بأكثريته الساحقة النظام القائم. كذلك، تعرف أن إيران لا ترى لنفسها مستقبلا في سوريا من دون تغيير ديموغرافي في العمق يشتّت السنّة ويهجّرهم إلى خارج سوريا وإلى مناطق معيّنة في الشمال السوري حيث الهيمنة التركيّة. ما ليس معروفا هو لماذا الاستمرار في هذه السياسة التي لن تجلب سوى المزيد من الخراب الذي سيلحق أيضا بدروز سوريا وليس بالسنّة وحدهم في منطقة حوران ودرعا البلد على وجه التحديد.

إلى أين ستأخذ روسيا سوريا؟ ستأخذها إلى المزيد من التفتت لا أكثر وإلى وضع يشكل تهديدا للبنان والأردن في الوقت ذاته. أين مصلحة روسيا من كلّ ذلك؟ ثمّة من يعتقد أنّ الأميركيين في عهد جو بايدن غير مهتمّين بالمنطقة وسيقبلون بأن تتسلّمها روسيا التي لم تتردّد يوما في أن تضع نفسها في خدمة إيران. تبدو مثل هذه المعادلة الطريق الأقصر إلى المزيد من التدهور والضياع في منطقة تحتاج إلى حدّ أدنى من الاستقرار أكثر من أيّ وقت!

فراغ السلطة ملأته الأيادي الخفية

صابر بليدي
صحافي جزائري

منذ حرائق تيزي وزو، وجريمة القتل المروعة للناشط المتطوع جمال بن إسماعيل، يبدو أن هناك من يريد شل المجتمع الجزائري أو الدفع به إلى الانفجار، فبعدما تم احتواء الأزمة بفضل حكمة العقلاء، يريد هؤلاء استفزاز على المصدر الوحيد لإسعاد الجزائريين والتشويش عليه، في زمن سدت فيه جميع الآفاق.

معالم الحرب النفسية بدت واضحة خلال تلك الأحداث، والرغبة في تحطيم القوى العقلية لشعب كامل أو النيل بالمقولة الخالدة لوالد الضحية "لا نريد حربا أهلية، القبائل إخوتنا"، لم تتوقف التسجيلات عن النزول تباعا على شبكات التواصل الاجتماعي بحثا عن عود الثقاب الذي كان ينقص حرائق من نوع آخر.

الوضع كان بمثابة مواجهة مستترة بين "شياطين الفتنة"، وصوت العقل والحكمة، ولأن هؤلاء غاية في الاحترافية ويدركون ما يفعلون، فإن مسلسل النيل من معنويات الشارع ومن قواه العقلية مستمر واختيار الأهداف يتم بدقة.

وحتى المصدر الوحيد لإسعاد الجزائريين بات محل رادار تشويشهم، لأنهم يدركون أن المجتمع في حالة انهيار شامل ولم يبق له كقاسم مشترك يصنع أفراحهم لبعض الوقت إلا منتخب كرة قدم، وبعض الشبان يقودهم شاب ليس ككل الشباب، لأنه فعلا رجل ساحر ارتقى بحرفته إلى فلسفة وليس إلى لعبة فقط، وهو ما يخططون لتحطيمه بغية تسهل عملية التدمير الشامل.

لقد أرغدت السلطة وأزبدت بشأن الأحداث المذكورة، لكن الشارع الذي فقد حتى ابتسامته وحيويته المعهودة يريد الحقيقة ويريد أن يعرف من يستهدفه في كل شيء ولم يسلم منهم حتى منتخب كرة القدم، ولذلك تم تفخيخ ظروف المباراة السابقة، لكن جمال بلماضي كان في المكان والزمان المناسبين وسحب البساط من مؤامرة منها كانت ماثلة للعيان، لأن اليد الخفية محترفة على ما يبدو، وتعرف ما تفعل وماذا تستهدف، ولو أن صوت الحكمة والعقل في الجهة المقابلة، نغّص عليها حياتها وأحبط مخططها إلى غاية الآن.

كان هؤلاء يريدون إشعال الفتنة بكل الوسائل، فلما اصطدم القتل المروّع بالتسليم بالمقاربات الرسمية لدى الكثير من الجزائريين، لاسيما وأن المعركة الخفية لا زالت مستمرة، والأحداث المستفزة لمشاعر الرأي العام تشير إلى أن حرائق تيزي وزو والجريمة التي وقعت فيها، هي مجرد معركة من حرب.

وإذ تتابعت قرارات كبار مسؤولي الدولة إلى درجة لم يعد بالإمكان معرفة صاحب القرار الأصلي، لما تعلق الأمر بعزل مسؤولين مركزيين ومحليين في وزارة الشباب والرياضة، بسبب التقصير في الاعتناء بملعب البليدة، والظروف المزرية التي استقبل فيها الوفد البارالمبي المشارك في ألعاب طوكيو، فإن الكل يريد الوصول إلى السيد "x".

وكم ظهرت الحكومات المتعاقبة والمؤسسات المختصة، صغيرة في أعين الجزائريين، كون البلاد برمتها لا تمتلك حافلة مجهزة خاصة بذوي الاحتياجات الخاصة، وحتى كبرى شركات النقل الحضري في البلاد لا تملك إلا حافلتين والرواية على لسان وزير الشباب والرياضة، الذي ظهر وكأنه بريء من المظلمة التي ارتكبت في حق من رفع راية الجزائر في سماء طوكيو، عكس وفد الأصحاء الذين عادوا بخفي حنين، ما دام الخنجر قد مسح في الكبشين اللذين قدما فداء للفضيحة.

صحيح قد تكون وراء الأحداث أياد تستهدف كل ما هو جميل في البلاد، لكن لم يكن بإمكانها فعل كل ما فعلت وستفعل لو وجدت حكومة ومؤسسات محترفة، ولم يكن بإمكانها أن تخوض في تيزي وزو، لو لم تكن هناك حملة منظمة لخطاب الكراهية وبث الفرقة وشحن الحزازات الإثنية والعرقية، ولقد ثبت ذلك بشهادة السلطة التي سجنت جنرالين بسبب ذلك، وبشهادة شركة فيسبوك التي ألغت العشرات من الصفحات نظرا للأسباب المذكورة ووصفتها بـ"المقرّبة من السلطة".

الحرب المعنوية التي تشن على الجزائريين واستقواء الأيادي الخفية لم تكن لتشتعل وتصيب الشارع في الصميم لولا انتهاء صلاحية المنظومة الحاكمة وعجزها عن مواكبة أحلام الشارع الجزائري وطموحاته

لم يكن بإمكان هؤلاء التآمر على المؤسسة الوحيدة الناجحة في البلاد (منتخب كرة القدم)، لو لم يكن القطاع مريضا بالفساد والمفسدين، ولا الإساءة لمن شرّف البلاد في المحفل الأولمبي، لو كانت المنظومة الرياضة في وضع مقبول، والسؤال المطروح، هل يكفي إقصاء كوادر مركزية ومحلية لإصلاح الوضع؟

الجزائر تضم الآن 11 ملعبا قيد الإنجاز، لكنها عبارة عن ورشات مفتوحة لا أحد يعلم نهايتها، وتملك العديد من الملاعب المفتوحة، لكنها البلد الوحيد في العالم الذي لم يستطيع الحفاظ على البساط الأخضر وصيانته ورعايته، فعادة ما يبدأ عشبا أخضر وينتهي إلى كلأ أصفر صالح للاستهلاك الحيواني، ليتكرّس بذلك الفشل الحكومي والمؤسساتي.

كان لا بد للسلطة قبل أن تتظاهر بالخجل أمام الإساءة التي ألحقها أعوانها برموز النجاح، التفكير أولا في المنشآت والمرافق الرياضية المتآكلة والمعطلة، وتسوية ملف ورشات الـ11 ملعبا الذي لم ير النور إلى حد الآن، رغم أن بعضها استهلك 15 عاما من الوقت وملعب واحد فقط استنفد 300 مليون دولار.

وكان على الحكومة أن تفكر في مليوني معوق من ضمن 45 مليون نسمة، يتلقون منحة 80 دولارا لا تغطي تكاليف أبسط الاحتياجات، أما مسالكهم في الإدارات والمؤسسات ومحطات النقل فهي ليست في برنامج مصالح الأشغال والإنشاءات تماما، وأما المركبات المجهزة فحدّث ولا حرج، وإلّا لما حدث الاستقبال المهين لذوي الهمم رغم تشريفهم للبلاد ورفع الراية الوطنية في طوكيو. عكس وفد الأصحاء الذي عاد مطأطأ الرأس، وبدل من أن تسقط تلك الكوادر، كان الأجدر إسقاط وزير القطاع نفسه، فأين كان ولماذا لم يكلف نفسه عناء استقبال الوفد والسهر شخصيا على الإمكانيات المرصودة لذلك؟

المحصلة أن الحرب المعنوية والذهنية التي تشن على الجزائريين، واستقواء الأيادي الخفية، لم تكن لتشتعل وتصيب الشارع في الصميم، لولا انتهاء صلاحية المنظومة الحاكمة وعجزها عن مواكبة أحلام الشارع وطموحاته، ولم تكن لتستعر لو لم تتأكد أن الانهيار واقع، ولم يبق إلا هدم صرح وحيد، هو منتخب كرة قدم الذي يلجأ إليه الجزائريون لممارسة طقوس متنافرة: هروب من الواقع، تخدير، متعة عارضة، والاعتزاز براية وطن.